عظة عن

موسم الصوم المقدَّس

للقديس يوحنا ذهبي الفم[1]

فلنفرح بالصوم:

١ - إنني مسرورٌ ومبتهجٌ أن أرى كنيسة الله مزيَّنةً اليوم بهذا الحشد من أبنائها، وأن أراكم جميعًا آتين معًا بفرحٍ عظيمٍ. أقصد بذلك أنني عندما أنظر إلى وجوهكم المُنيرة، أعتبر ذلك كعلامة لا تخيب على الرضا الذي تشعرون به في قلوبكم، كما يقول الحكيم: «عندما يفرح القلب يكون المظهر مُبتهجًا» (أم ١٥: ١٣سبعينية). وهكذا بالطبع نهضتُ أنا نفسي هذا الصباح بحماسٍ أكثر من العادة، حيث إن عليَّ أن أُشارككم هذه السعادة الروحية، كما أردتُ أن أصبح مُبشِّرًا لكم باقتراب الصوم الكبير الذي يمكنني القول إنه هو العلاج لنفوسكم. ها أنتم ترون أن سيدنا كلنا كأبٍ محبوبٍ أراد لنا علاجًا بواسطة الصوم المقدَّس برغبته أن نتنقَّى من الخطايا التي ارتكبناها بمرور الزمن.

إذن، فلا يكن أحدٌ مكتئبًا أو متضجرًا، بل فليتهلل ويكون فَرِحًا ويُمجِّد راعي نفوسنا الذي يُظهِر لنا الطريقة الأفضل، وليرحِّب باقتراب الصوم الكبير بفرحٍ عظيم. ولنرحب باقترابه بمثل تلك الحميَّة، دعوا الوثنيين يدلِّلون على أعيادهم واحتفالاتهم بالسُّكر وكل أنواع السلوك والمُخزيات التي يحلِّلونها لأنفسهم، والتي تُناسبهم لكي يتمرَّغوا فيها. أما كنيسة الله فلتُميِّز أعيادها بالصوم، وتتغاضى عن الشهية للأكل وجميع القُوَى المُصاحبة لها. فهذا، في الحقيقة هو العيد الحقيقي، حيث يوجد خلاصٌ للنفوس، وحيث يوجد سلامٌ وانسجامٌ، وحيث توضع مصاعب الحياة اليومية جانبًا، وتخلو من ضوضاء وطنين ومجون أنواع المطبوخات الفاخرة ونحر الذبائح، وتكون الحياة اليومية في راحةٍ داخليةٍ وهدوءٍ كلِّيٍّ، محبة وفرح وسلام ولُطف وألوف من الصالحات الأخرى عِوَضًا عن ذلك السلوك الآخر.

---

(1) The Fathers of the Church, Vol. 74, p. 20.

٢ - لذلك، هلمُّوا الآن أرجوكم، ولنناقش تلك الأمور، يا أعزائي، ودعوني أحثكم أولًا أن تقبلوا كلامنا بغيرةٍ عظيمةٍ حتى تربحوا شيئًا له وزنه قبل أن تعودوا إلى بيوتكم. إنه ليس عبثًا وبلا هدف كان مجيئنا إلى هنا، فقد جئتُ أنا بهدف أن أنطق بشيءٍ نافعٍ وموافقٍ لخلاصكم، وأنتم جئتم لكي تنتفعوا مما يُقال، ومِن ثَمَّ تعودون بربحٍ أكثر إلى بيوتكم. إن الكنيسة، كما ترون، هي كصيدلية للروح، والذين يأتون إلى هنا عليهم أن يكتسبوا بعض العلاجات المناسبة لهم، والتي يلتمسونها لأجل أمراضهم فيتغلَّبون عليها.

٣ - إن الطوباوي بولس الرسول يؤيِّد ذلك بقوله إن مجرد الاستماع بدون استجابة ليس له قيمة قائلًا: «لَيْسَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ النَّامُوسَ هُمْ أَبْرَارٌ عِنْدَ اللهِ، بَلِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِالنَّامُوسِ هُمْ يُبَرَّرُونَ» (رو ٢: ١٣). كما أن المسيح في بشارته يقول: «لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ يَا رَبُّ، يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَوَاتِ» (مت ٧: ٢١). وبناءً على ذلك، يا أحبَّائي، فطالما أننا نعلم أنه لا فائدة لنا من الإصغاء إن لم يكمل ذلك بما يتبعه من أعمالٍ صالحةٍ، فلنكن لا سامعين فقط، بل عاملين حتى تكون الأعمال التي تتبع الكلام باعثةً لنا على الاطمئنان.

٤ - لذلك اكشفوا أعماق أذهانكم لكي تتقبَّلوا هذه العظة عن الصوم، ولكي تُقارنوا بين عروسٍ بسيطة وأخرى رزينة: فإن الذين مهمتهم تقديم العروس إلى خدر العُرْس، يُزيِّنون الخدر بالستائر ويُنظِّفون البيت كله، غير معطين أي مدخل لخادماتٍ غير مهندمات، وحينئذٍ فقط يُقدِّمون العروس إلى خدرها. إنني أحب لكم أن تتبعوا هذا المثال، مُطهِّرين أفكاركم، مودِّعين التساهُل والتطرُّف إلى الأبد. وحينئذٍ ترحِّبون بأعماق قلوبكم المفتوحة بأُمِّ كلِّ صلاح، سيدة الرصانة، وكل فضيلةٍ أخرى، أقصد الصوم، لكي تفرحوا بمسرَّةٍ أعظم، ولكي تزوِّدكم تلك الأُمّ بشفائها الخصوصي. وبمعنى آخر، عندما يعزم الأطباء على وصف العلاجات للمرضى المتطلِّعين إلى التخلُّص من العفونة أو السوائل الضارة، فإنهم يوجِّهونهم إلى التوقُّف عن الطعام الجسدي لئلَّا يكون عائقًا عن فاعلية الدواء بدلًا من أن يكون له مفعولٌ بإظهار قوة خصائصه الحقيقية. هكذا يجب علينا أن نكون أكثر من ذلك عند تقبُّلنا لهذا الدواء الروحاني، أي الانتفاع من الصوم، فنُطهِّر أفكارنا ونجعل أذهاننا يقظةً لئلَّا تتبلَّد من الشُّرب، وتجعل ما هو نافعٌ لنا في ممارسة الصوم بلا نفع أو فائدة.

٥ - إنني أعلم بالطبع أن ما سأقوله اليوم سيُثير الكثير منكم باعتباره جديدًا عليكم، لذلك أرجوكم ألَّا نصيِّر أنفسنا عبيدًا للعادة بعدم اكتراثنا، بل فلنُخضع تلك الأمور مُحرِّكين عواطفنا في اتجاه مسيرة العقل. وهل تنتفعون شيئًا من الشَّره اليومي في الأكل والانغماس الزائد فيه؟ إنه أبعد ما يكون عن المنفعة، فكل ما تحصلون عليه منه هو الضرر والتلف الذي لا يُطاق. إنكم ترون أنه عندما يصير العقل متبلِّدًا من الشُّرب المُفرط، فإن المنفعة التي تُكتَسب من الصوم تزول في الحال دون أن تترك أثرًا. إن الكتاب يقول: «... وَلَا سِكِّيرُونَ وَلَا شَتَّامُونَ وَلَا خَاطِفُونَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ» (١كو ٦: ١٠). إذن، فماذا يمكن أن يكون أردأ من ورطة أولئك الذين هم مرفوضون من الملكوت بسبب إشباع شهوة عابرة ومُضرَّة؟!

٦- الله لا يسمح أن يكون أحدٌ منكم أنتم المجتمعون هنا مغلوبًا من ذلك الضعف، بل لعلَّكم، بدلًا من ذلك، تزيِّنون كل يوم باتزان وضبطٍ للنفس، وتكونون أحرارًا من الزوابع والعواصف التي يُسبِّبها الانغماس في الشهوات؛ وهكذا تصلون إلى ميناء السلامة لنفوسكم، أقصد الصوم، لكي تكونوا في وضع يُمكِّنكم من الانتفاع بفوائد الصوم المُضاعفة. إنني أقصد كما أن الانغماس في الشهوات يثبت أنه هو السبب والمُشجِّع على شرورٍ لا تُحصى للجنس البشري، هكذا، بنفس الطريقة، قد أثبت الصوم والتغاضي عن شهية النفس وميولها أنه يؤدِّي إلى منافع لا تُحصى لنا.

إنكم تذكرون أن الله عند خلقته للبشر في البدء، عَلِمَ باحتياجهم بصفةٍ خاصة إلى هذا العلاج لأجل خلاص نفوسهم، ولذلك فقد أوصى خليقته البشرية منذ البداية قائلًا: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا» (تك ٢: ١٦و١٧). وهذا النص الخاص بالأكل وعدم الأكل يشير بطريقةٍ رمزية إلى الصوم، فرغم أن الإنسان كان مُجبرًا على حفظ تلك الوصية، فهو لم يُنفِّذها إذ تغلَّب عليه الانحراف وارتكاب المعصية، وجلب على نفسه حُكْم الموت. إنَّ الشيطان، كما تذكرون، كروحٍ شريرٍ وعدوٍّ لجنسنا، عندما رأى الإنسان الأول يعيش في الجنة، وكيف أن حياته كانت خالية من الهموم، وكيف عاش على الأرض في هيئةٍ جسدية ولكن مثل ملاك؛ أراد أن يُعثره ويزحزحه من مكانه، بأن يعشِّمه بمواعيد أعظم؛ وهكذا خدعه بامتلاك ما كان لديه. هذا هو مقدار الشر الذي يكمُن في عدم حفظ حدودٍ لائقة لأنفسنا والطموح إلى العظائم. لقد أوضح أحد الحكماء ذلك في قوله: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الإِنْسَانَ خَالِدًا، وَصَنَعَهُ عَلَى صُورَةِ ذَاتِهِ، لكِنْ بِحَسَدِ إِبْلِيسَ دَخَلَ الْمَوْتُ إِلَى الْعَالَمِ»

(حك ٢: ٢٣و٢٤).

أَتَرَوْن، يا أحبَّائي، كيف أنه من البدء وجد الموت مدخلًا إلينا بسبب انحرافنا؟ لاحظوا أيضًا أن الكتاب المقدَّس بعد ذلك يدين الانغماس في الشهوات قائلًا: «جَلَسَ الشَّعْبُ لِلأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ» (خر ٣٢: ٦؛ ١كو ١٠: ٧)، وأيضًا: «فَسَمِنَ يَشُورُونَ (يعقوب حسب السبعينية) وَرَفَسَ. سَمِنْتَ وَغَلُظْتَ وَاكْتَسَيْتَ شَحْمًا! فَرَفَضَ الإِلهَ الَّذِي عَمِلَهُ، وَغَبِيَ عَنْ صَخْرَةِ خَلاَصِهِ» (تث ٣٢: ١٥). وأهل سدوم أيضًا جلبوا لأنفسهم ذلك الغضب الذي لا يخمد من تلك الخطية وحدها دون ذكر خطاياهم الأخرى. استمعوا لكلام النبي: «هذَا كَانَ إِثْمَ أُخْتِكِ سَدُومَ: الْكِبْرِيَاءُ وَالشَّبَعُ مِنَ الْخُبْزِ ... وَلَمْ تُشَدِّدْ يَدَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ» (حز ١٦: ٤٩)، وباختصار، فإن النهم والشبع هما كينبوع مستمر لكل شرّ.

٧- ومن الناحية الأخرى، انظروا إلى أمثلة السلوك الصالح الناتج عن الصوم: فإن النبي موسى العظيم، بعد صومه لمدة أربعين يومًا (خر٢٤: ١٨؛ ٢١: ١٨)، أمكنه أن يحصل على لوحَي الشريعة، ولما نزل من الجبل ورأى خطية الشعب، ألقى باللوحين اللذين حصل عليهما بنجاحه في مثل هذا التشفُّع وهشَّمهما (خر ٣٢: ١٩)، إذ اعتبر أنه من غير المعقول أن يحصل هذا الشعب اللاهي والخاطئ على ناموس من وضع الرب نفسه. وعلى ذلك، فإن ذاك النبي الشهير كان عليه أن يأخذ على عاتقه صومًا أربعين يومًا أخرى، لكي يمكنه أن يأخذ لوحين آخرين مثل اللذين كسرهما بسبب خطية الشعب (خر ٣٤: ٢٨).

وإيليا النبي أيضًا صام فترةً مماثلةً (١مل ١٩: ٨)، إذ أفلت من سلطان الموت وصعد إلى السماء بمركبةٍ نارية، وحتى هذا اليوم لم يذُق الموت. هكذا أيضًا دانيال النبي، رغم أنه كان سريع الانفعال، فقد قضى عدة أيام صائمًا، - فنال كمكافأة له - رؤيةً رهيبةً حتى إنه ذلَّل هياج الأسود وحوَّلها إلى حملانٍ وديعة، ليس بتغيير طبيعتها، بل بتحويل غرضها دون أن تفقد وحشيتها! وقد استعمل أهل نينوى هذا العلاج أيضًا، فربحوا من الرب مهلةً، إذ تأكَّدوا من أن الحيوانات ينبغي أن تُطَبِّق العلاج مثل البشر؛ وهكذا منعوا كلًّا منها من ممارسة الشر، وهكذا ربحوا حظوةً من ربِّ الكل (انظر: يون ٣). ويمكننا أن نذكر عدة أمثلة أخرى مشهورةً في كِلَا العهدين القديم والجديد. ولكن لماذا نشير إلى الخدام عندما ينبغي أن نأتي إلى ربنا جميعًا؟ إنكم تعلمون أن ربنا يسوع المسيح ذاته قد صام أربعين يومًا، فأصبح معدًّا للصراع مع الشيطان،

معطيًا لنا مثالًا أنه ينبغي بواسطة الصوم أن نسلّح أنفسنا، وباكتساب القوة من ممارسة الصوم نقبض بإحكام على هذا العدو المرعب.

٨- وعندما ينظر أحد للأشياء بانتقاد، ويجعل ملكاته متنبّهةً، فربما يسأل: لماذا رُؤيَ الرب صائمًا بنفس عدد الأيام مثل رعيته؟ ولماذا لم يتعدَّ هذا العدد؟ إن ذلك لم يحدث بدون أساس أو بدون غرض، بل حسب أغراض الرب الحكيمة ورأفته. ففي حالة أنه قد يبدو أنه ببساطةٍ جاء إلى الأرض بدون أن يتخذ جسدًا وصار إنسانًا في الظاهر فقط، فقد صام نفس عدد الأيام لكي يجعل لذلك أهمية، ودون إضافة أي أيام لكي يكبح جماح تنافُس الناس الذين يريدون أن يتصرفوا في ذلك بإفراط. إنكم ترون أنه إن كان هناك أولئك الذين يتهورون ويندفعون إلى الكلام بتلك الطريقة، وحتى إذا تصرف الرب كما فعل، فماذا كانوا يحاولون أن يقولوا لو لم يكن قد سلبهم من أي حجة؟ وهكذا فقد قاوم تجربة أن يصوم أيامًا أكثر من رعاياه، فعلَّمنا بذلك درسًا بأنه اتخذ لنفسه حالة بشرية، وأنه عاش غير منعزل عن حالنا البشري.

٩- وحيث إن ذلك أصبح الآن واضحًا لكم من مثال كل من الرب ورعاياه أن قيمة الصوم جديرةٌ بالاعتبار، وأن منفعةً عظيمةً تنشأ للنفس منه، فأرجوكم، يا أعزائي، إذ عرفتم فائدته، ألَّا تقاوموا قوته الخلاصية بعدم مُبالاتكم، ولا يهن عزمكم عند اقتراب الصوم، بل افرحوا وكونوا مسرورين كما يقول ق. بولس: «إِنْ كَانَ إِنْسَانُنَا الْخَارِجُ يَفْنَى، فَالدَّاخِلُ يَتَجَدَّدُ يَوْمًا فَيَوْمًا» (٢كو ٤: ١٦). فالصوم إنما هو غذاءٌ للنفس، وكما أن الغذاء الجسدي يُسمِّن الجسد، فإن الصوم يقوّي النفس بشرط أن تكون له أجنحة خفيفة الحركة لكي ترفعه عاليًا وتُمكِّنه من أن يتأمل في الأمور السامية، وتجعله متفوقًا على مسرَّات وجاذبية الحياة الحاضرة. وكما أن أخف السفن تعبُر البحار بسرعةٍ أكثر، في حين أن السفن المثقَّلة بحمولةٍ كبيرة يحل فيها الماء، هكذا أيضًا يتخلَّى الصوم عن قدرة العقل الخفيفة، ويُمكِّنه من أن يتغلَّب بحذقٍ على مصاعب الحياة ويطير إلى السماء والسماويات مزدريًا بأمور هذه الحياة باعتبارها أسرع زوالًا من الظلال والأحلام. ومن الناحية الأخرى، فإن التساهُل والإفراط في الجسديات يُثقِّلان عقولنا، ويسمِّنان الجسد ويقيِّدان الروح ويطوقانها من كل جانب، ويجرِّدان حُكْم العقل من أي شيء يُعتمَد عليه، ويستميلان العقل إلى اتِّباع سُبُلٍ خطرةٍ، وهكذا يعملان بكل طريقةٍ ضد خلاصنا.

١٠- دعونا، يا أعزائي الأحبَّاء، ألَّا نكون مهملين في التعامل مع أمور تخص خلاصنا، بل نتعرَّف

على المُزعجات التي يمكن أن تنشأ من ذلك المصدر الشرير، دعونا نتجنَّب الأذى الذي ينتج منه. فضلًا عن كوننا قد حُذِّرنا من الإسراف (أو الإفراط) ليس فقط في التدبير الجديد بما له من الانتباه لفكرٍ صائب، وصراعاته المتكررة وجهده الشديد، ومكافآته العديدة وتعزياته التي تفوق الوصف. ولم يُسمح حتى للناس الذين يعيشون تحت الناموس القديم أن يُطلِقوا العنان لأنفسهم بتلك الطريقة، حتى رغم أنهم كانوا جالسين في الظلمة، معتمدين على أضواءٍ ضعيفة، وتقدَّموا تدريجيًا إلى النور، مثل أطفال يُفطمون من اللبن. ولئلَّا تظنُّوا أني عبثًا أجد خطأً في الإسراف (أو الإفراط) فيما أقول، فاستمعوا لما يقوله النبي: «ويلٌ للمضطجعين في الأيام الشريرة على أسرّةٍ من العاج والمُتمدِّدين على فُرُشهم والآكلين خرافًا من الغنم وعجولًا من وسط الصيرة، الهاذرون مع صوت الرباب، المخترعين لأنفسهم آلات الغناء كداود، الشاربين من كؤوس الخمر، والذين يدَّهنون بأفضل الأدهان، مثل أُناسٍ يُعاملون ذلك كمدينةٍ ثابتة، ولا يطلبون مَنْ هو آتٍ» (عا ٦: ٣-٦ سبعينية). أترون التهمة الثقيلة التي يُصوِّبها النبي على الإسراف (أو الإفراط) متهمًا اليهود بأخطاء الغباوة هذه والشهوانية والشَّره اليومي؟ أقصد أن تلاحظوا دقَّة الكلام، فبعد مهاجمة شرِّههم وشُريهم المُفرط، أضاف: «مثل أُناسٍ يعاملون ذلك كمدينةٍ باقية (ثابتة)، وغير طالبين مَنْ هو آتٍ»، وعلى الأكثر مقررين أن كفايتهم أدركت حتى الشفاه وسقف الحلق، ولم يتقدموا إلى ما هو أفضل. فإن المسرَّة قصيرة وعابرة، في حين أن الألم لا يكفُّ وليس له نهاية. إن حقيقة ذلك تنشأ من الخبرة، والمعنى الحقيقي من الحقائق الثابتة، هكذا يقول: "مثل أُناسٍ يعاملون ذلك كمدينةٍ باقية، وأشياء عابرة، وغير طالبين مَنْ هو آتٍ"، أي أنها ليست باقية لحظةً واحدة.

١١- جميع الأمور البشرية والمادية هي من هذا النوع من المسرَّات، والمجد والسلطة البشريتين، مثل الثروة وكل ازدهار للحياة الحاضرة، فإن تلك الأمور ليس لها شيء ثابت بخصوصها ولا شيء راسخ، ولكنها متغيرة أسرع من تيارات النهر، تاركةً أولئك الذين انجرفوا فيها عرايا ومهجورين. ومن الناحية الأخرى، فإن الروحيات ليست هكذا؛ بل بالعكس تمامًا، وفي الحقيقة إنها ثابتة وغير متحركة وغير خاضعةٍ للتغيير، وهي باقية إلى الأبد. فأيُّ حماقةٍ، إذن، تكون في استبدال ما هو غير مُتحرِّك بما هو مقلقل (أو غير مستقر)، الدائم بما هو عابر، الثابت بما هو سريع الزوال، ما يَعِد بمنح الفرح في الأبدية بما يُقدِّم لنا عقابًا مُريعًا هناك؟

(البقية صفحة ٣٥)